حضارة الميتانيين

بقلم قيصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

— ٢ —

﴿ اللغة ﴾ عندما نهضت الآثار الميتانية من جوف الثرى ومسحت عن جفونها غبار الايام حاول علماء الآثار ان يستجلوا معاني تلك السطور العالقة على بعضها فلم يوفقوا في محاولتهم ولبثت كتابات الميتانيين غامضة صامتة لا تبين بنت شفة عما تتضمنهُ من الاسرار ربما يقسى العثور على لوحات ميتانية مثل لوحات بوغاز كوي ورأس الشمراء التي تدوّن فيها النصوص الواحدة مترجمة الى عدة لغات تساعد على تفسير بعضها بعضاً . غير انهُ يلوح من اسماء بعض الملوك الواردة باللغات المصرية والحثية ان لغة الميتانيين كانت مزيجاً من ألفاظ اسيوية وآرية وهي تشبه بذلك لغة القوقاس الحشنة وقد اشارت ألواح بوغاز كوي الحثية الى وجود قصص وقصائد موضوعة باللغة الميتانية اشيد فيها باعمال البطل جيلجماش العجيبة كما ان الكتابات الميتانية التي عثر عليها في حفريات تل العمارنة تدل على ارتقاء الفكر وسعة انتشار ادب المراسلة عند الميتانيين كرسالة الملك توزارطا الموجهة الى امنوفيس الثالث التي تنطوي على ٤٩٤ سطراً وهي مخطوطة بالقلم المسماري وتعد هذه الرسالة المطولة من اهم ما عثر عليه حتى يومنا من الاسانيد التي تمهد لدرس اللغة الميتانية بفضل مقدمتها حيث تيسّر حل مدلول بعض الفاظها التي يخاطب عادةً بمثلها قراءة مصر على انهُ ينتظر عند اتساع حلقة الحفريات في اراضي الميتانيين ان تتوالى البينات التي تساعد على حل رموز هذه اللغة الموبصة حلاً نهائياً

﴿ الانظمة والقوانين ﴾ ما برحت لغة الميتانيين مستعصية الحل على علماء الآثار فليست معلوماتنا عن انظمتهم وقوانينهم غير معلومات مقتضبة اخذناها عن كتابات جيرانهم الذين ألمعوا الى هذه الانظمة والقوانين في سياق البحث عن انظمتهم وقوانينهم الخاصة او عن عقود ميتانية محررة بلغة اجنبية

فقد كان الجيش وراثياً تحرسهُ كوكبة من الجيش يطلق عليها اسم الحرس المارياني . اما طراز الحكم فكان اقطاعياً ينحصر توليه في طبقة من الاعيان تتحدّر من عنصر آري مثل العائلة المالكة نفسها وتكاد تكون قوانين الدولة مستعارة برمتها من قانون حمورابي الذي كان له اعمق تأثير في كل الدول التي قامت فيما بين النهرين . بيد انهُ كان يستثنى من ذلك تشريع التعامل

التجاري عند الميتانيين الذي عرف بميزة خاصة تنطبق على حاجة جماعة معظمهم من الزراع . وقد اشار الاستاذ كوك الى الخاصّات التي تميز العقود الميتانية عن سواها وأهمها وجوب بيان المحل الذي تم فيه العقد ويدوّن العقد مع ذكر أسماء الشهود الحاضرين مما كان يفعل في معظم العقود الحثية . زد على ذلك ان المكاييل والاقيسة الوارد ذكرها في العقود الميتانية كانت أقرب الى ما هي عليه في أشور مما هي عليه في بابل . فقد كان الكيل المدعو إمر الشائع عندهم يستوعب من الحبوب مبذر مساحة معينة من الارض ويوازي أربعين لتراً من مكاييلنا

﴿شرائع الزواج﴾ كان الخطيب عند الميتانيين يفقد والد الفتاة مبلغاً من المال يرمز فيه الى عادة مشترى المرأة تلك العادة التي كانت متفشية في بابل . بيد انهُ كان يترتب أدباً على الوالد الميتاني ان يسرع باعادة المبلغ المذكور الى الخطيب بعد قبوله شكلاً ويمهر ابنته بما تتساعد عادة على تقديم هدية ثمينة الى بعلها ليلة الزفاف مما لا نرى لهُ مثيلاً في تقاليد الجوار . وقد كان مباحاً للزوج ان يطلق امرأته اذا كانت عاقراً أما اذا كانت ولوداً فلا يحق لهُ ذلك دون ان يعوضها بالمال ويخسر في حال طلاقها حقوق الابوة على أولاده مع بقاء حق الارث محصوراً بعده في أولئك الاولاد دون غيرهم

﴿شرائع التبني﴾ ومما كان شائعاً في البلاد الميتانية شريعة التبني وقد عرفت منها ثلاثة أشكال : ففي الشكل الاول المدعو (أنا شمتي) كان يختار المرء قريباً لهُ يتبناه بطريقة غير قابلة النكول فيرعاه بحمايته ويغدق عليه خيراته . أما في الشكل الثاني المعروف باسم (انامعروتي) فيصح تبني شخص غريب عن العائلة ويحق للمتبنّى ان يرث حصة معينة من مال المتبني

ولما كانت أراضي الخراج المقطعة للموظفين او الجنود لقاء خدماتهم غير قابلة الانتقال الى الغير الاّ بطريقة الارث الشرعي فقد أوجد لها المشترع الميتاني حيلةً تساعد صاحبها العاجز عن العمل على الانتفاع بها او استغلالها بواسطة الغير وذلك بأن يتبنى مالكها شخصاً يهبها لهُ لقاء هدية من الفضة او الحبوب تعادل ثمنها وهذا هو الشكل الثالث وقد أطلق عليه الاستاذ سيزر الذي اكتشف لوحات كركوك اسم البيع بالتبني

﴿شرائع التعامل التجاري﴾ تكاد طريقة الاستقراض التي كان يجري عليها الميتانيون تشابه طريقة التعامل المعروفة في أيامنا في كثير من الوجوه ولا سيما فيما يتعلق بتعيين موعد الدفع في عقود الاستقراض التي كانت تدوّن على لوحات من الآجر يختم في ذيلها المدين وتلي توقيعه توقيعات شهود الحال . بيد ان معدل الفائدة كان يتفاوت بحسب نوع البضاعة المشتراة . فاذا كانت هذه البضاعة من مواد البناء كاللبن مثلاً تبلغ الفائدة نحو ٥٠ بالماية في حين ان شريعة حمورابي لا تجيز تقاضي الفائدة بمعدل يربي على ٢٠ بالماية في قرض النقود و ٣٣ ⅓ بالماية على قيمة الحبوب . واذا تعدد المدينون كان القانون الميتاني يسوّغ للدائن استيفاء تمام دينه عند الاستحقاق من المدين الاقرب اليه باعتبار المدينين متكافلين متضامنين في وفاء ما عليهم . وقد عثر على عقد

غريب ينص على أن السرية المدينة اذا وضعت خلال مدة الدين يتحتم عليها ان تتخلى عن مولودها الى الدائن أما اذا توفيت اثناء الوضع فلا يكون الدائن ملزماً بدفع ثمنها كما كان مسموحاً للدائن ان ينتفع بما هو مرهون لديه تأميناً على دينه سواء أنفضّ كان ام تحفةً حتى ولو كانت الرهينة انساناً وكان مفروضاً في بعض العقود كفالة شخص ثالث وهذا مأخوذ عن القانون البابلي . وكان التأجير معروفاً عند البابليين وكثير الرواج فيما يتعلق بعامل صنع اللبن والآلات الزراعية. أما العقوبات الواجب إنزالها بمن يتخلف عن الدفع فقد كان منصوصاً عليها في العقود نفسها وكانت تسري على المدين من طبعها حين تقصيره في القيام بالشروط الملحوظة وهي على الغالب نقدية ولكنها شديدة في معظم الاحوال لكيما تجعل للمدين رادعاً عما قد تسوّل له نفسه من التواني والتقصير . وقد نصت بعض العقود على عقوبة مؤلمة كالكم على الفم وكسر الاسنان وما شابه ذلك من ضروب التعذيب التي كانوا يسومون المدين إياها عند أول بادرة تتم على سوء نيته

فيستفاد مما تقدم أن معظم الشرائع الميتانية كانت مستعارة من بابل كما ألمحنا اليه آنفاً انما كان يطرأ عليها بعض التعديلات حسبما كانت تقتضيه أحوال البلاد وحاجاتها ولا مرية في ان معلوماتنا هذه ستزداد مع الايام اضعافاً وتتسع حلقة بحثها عندما ندرك معاني تلك الكتابات العديدة التي اخرجها المنقبون من مكامنها الدفينة

(الديانة) عندما درسنا ديانة الحثيين على ضوء نصوص لوحات بوغازكوي تبينا أن معابدهم كانت تضم عدداً عديداً من الآلهة تجمعت لديهم بنتيجة فتوحهم لانهم كانوا يبقون على آلهة البلاد التي يستعمرونها وتقاليدها ويكرمونها خشيةً من سخطها وموالاة لعبدتها حتى ضاقت هياكلهم عن استيعابها وأحيطت عقائد دياناتهم بغموض لا مفر منهُ. وكذلك نرى الامر نفسه قد جمّع عند الميتانيين طائفة من الآلهة عندما ضموا تحت لوائهم شتى العشائر التي كانت تقطن سوريا الشمالية وما بين النهرين . وقد أتاحت لنا الظروف ان نتعرّف الى معظم هذه الآلهة التي وردت اسماؤها في ذيل المعاهدة المصرية الميتانية التي وضعت تحت رعايتها . وبدل تعداد تلك الآلهة على مختلف العناصر التي تألفت منها المملكة الميتانية اذ كانت تُعرف الشعوب قديماً من اسماء الآلهة التي تنتسب اليها . وقد وجدنا في طليعة هذه الاسماء آلهة الميتانيين الاصلية اي الاله تحشوب ورفيقته هيا . ثم تليها آلهة البلاد المجاورة والمنضمة الى المملكة الميتانية او التي كان يسطو عليها نفوذها ويتخللها اسماء بعض آلهة بلاد الهند وسومر وبابل التي استقت من عناصرها الحضارة الميتانية . وكذلك نجد اسماء آلهة جبال زاخو ونهري الدجلة والفرات والسماء والارض والريح والسحاب . ويجدر بنا ايضاً ان نلمع الى ورود ذكر اسماء آلهة عشائر حيري التي يذهب البعض الى انها آلهة اليهود نفسهم الذين كانوا على عهد ازدهار تل العمارنة جماعة من المأجورين يحاربون تحت قيادة اي ّ كان في سبيل الكسب والغزو . اما الاله تحشوب الكبير الذي كان

تمثال متعرفة البرونزي، صغير الحجم مصنوع من البرونز بطول ١٧ر٥ سنتمتر اكتشف بين انقاض مدينة قطنة القديمة المعروفة اليوم بقرية المشرفة في ضواحي حمص ونقل الى متحف « اللوفر » حيث صُنف بين الآثار الميتانية

تمثال السفيره ، تمثال حجري صغير يبلغ علوه ٤٥ سنتمتراً وهو مقطوع الرأس والرجلين يمثل شخصاً يدعى (ادوني ايا بن الميا) حفر عليه اسمه وقدمهُ هدية الى سيد الهه وهو يعت الى الآثار الميتانية وقد اكتشف في قرية السفيره التي تقع على مسافة ٢٥ كيلو متراً شرقيّ حلب

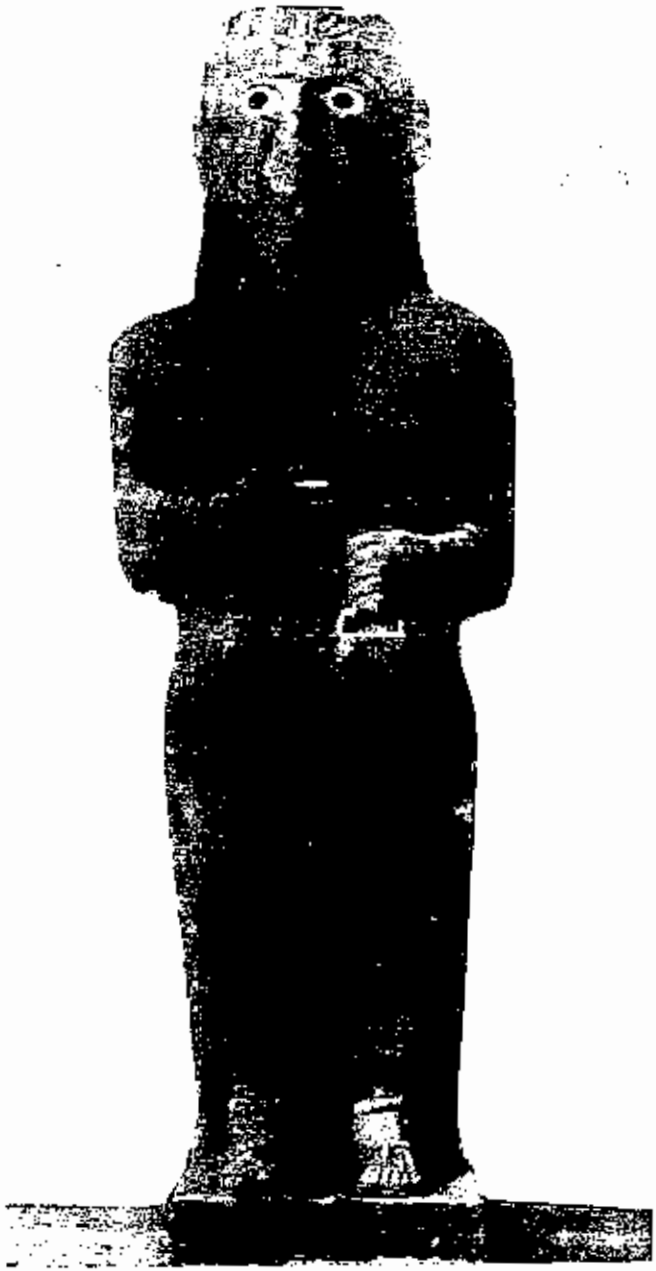

تمثال كبرى المعبودات الميتانية من الحجر البركاني الازرق بحجم (٧٤ر٢ × ٧٢ر٠ × ٥٠ر٠ متراً) اكتشف في تل حلف ونقل الى متحف حلب يمثل الهة واقفة عارية القدمين ممسكة بيدها اليسرى وعاء صغيراً كان يملأ عادة بالماء المطهر واما يدها اليمنى فمنبسطة على الصدر وفي رقبتها عقد ذو ستة صفوف وعلى معصميها وكعبيها أساور وشعرها مسترسل على الظهر

تمثال معبودة ميتانية ، من مكتشفات البارون اوبنهايم في تل حلف تمثل معبودة ميتانية تمسك في يدها اليمنى كأس التقدمة وهي تلبس رداء مزركشاً يغطي الجسم بتمامه ويكشف عن الساعدين وعن قدمين عاريتين حجمه ١ر٨٩ × ٠ر٨٦ × ٠ر٩٧ متراً من الحجر البركاني الازرق نقل الى متحف برلين بعدان مكب عليه نسخة معروضة في متحف حلب

نقش بيسان — يمثل في القسم الاعلى منهُ أسدٌ وكلبٌ منتصبان أحدهما مقابل الآخر وفي القسم الاسفل كلبٌ يعقر أسداً في ردفهِ وهو من الآثار الاشورية الميتانية. وقد اكتشف في قرية بيسان من اعمال فلسطين

يدين به الحثيون ايضاً فقد كان اله العناصر الاربعة والصواعق والانواء والامطار والخصب ويشبه الاله حداد الغربي في كثير من الصفات وتمثله النقوش الميتانية رجلاً مرتدياً لباساً قصيراً مغطى الرأس بتاج مخروطي ممسكاً بيده اليمنى فأساً وبيده اليسرى رمز الصاعقة المثلث الشعب (انظر رسمه في الصفحة (٥٢٧) من مقتطف دسمبر ١٩٣٦) ونراه في اكثر مواقفه على ظهر ثور وفي بعضها واقفاً على ذرى الجبال. وهيا رفيقة تحسوب على شاكلة الالهة عشتار كان يتمثل اليها الاكثار النسل وخصب الارض وقد مثلت في النقوش الميتانية برداء طويل وعلى رأسها تاج. وهذان الالهان هما المثل الاعلى للديانات الوثنية القديمة وعبادتهما كانت اكثر كل العبادات شيوعاً في هذه البلاد منذ اقدم العهود

﴿ الفن الميتاني ﴾ جدير بأن نطلق تسمية الفن الميتاني على الآثار المستخرجة ما بين النهرين ومن سائر الانحاء المجاورة والتي تمت الى العهد الذي طغى فيه النصر الحوري الميتاني على هذه المناطق اي العهد الذي يمتد بعرقنا منذ القرن السادس عشر حتى الرابع عشر ق . م. وتأتي في مقدمة هذه الآثار مجموعة الاسطوانات واللوحات المكتشفة في كركوك والتي تعد من اغنى مجموعات الآثار الحورية الميتانية . وتعتبر صناعاً مهماً بين مختلف الصنوف التي تمثلها اذ تمتاز صناعة حفر هذه الاسطوانات بكثرة وجوه الشبه التي تقربها من صناعة الحفر السومرية تلك الصناعة التي تعتبر النواة الاولى لكل صناعات الحفر المعروفة ليومنا هذا في اسيا الصغرى . تدلنا على ذلك التقوش المتشابهة في الصناعتين والافراط في استعمالها عند الشعبين . ويلوح ان الميتانيين كانوا احذق من سائر معاصريهم في استعارة الفن السومري واكسابه طابعاً خاصاً بهم لانهم كانوا بطبيعتهم الاسيوية اقرب من البابليين وسائر الشعوب السامية الاصل الى فهم خاصة الفن السومري وليد حضارة قريبة من الحضارات الاسيوية . ويبدو ايضاً على بعض الآثار الميتانية انها كانت متأثرة في بعض الاحوال بالطابع المصري وفي بعضها بطابع الايجه وادلتنا على تأثرها بالطابع المصري كثيرة نخص منها بالذكر استعمال قرص الشمس المجنح في بعض النقوش الميتانية . ذاك الرمز الذي يعد بلا جدال ظاهرة مصرية بحتة (راجع الصورة أمام ص ٤٥ من مقتطف يونيو الماضي) كما ان تأثرها بطابع الايجه بارز جلياً في نقش الشجرة المقدسة التي احتفرها الميتانيون على آثارهم بشكل نخلة سوسنة الاغصان كثيرة الزخرف يحرسها إلهان وفي بعض الاحيان أسدان على نحو ما هي عليه في نقوش الايجه . اما سائر الرموز فتكاد تكون كلها مشتقة من اصل سومري كالضفائر التي تغشي معظم اسطوانات كركوك ومشاهد انتصارات البطل جلجامش في مصارعة الثيران والاسود التي يبدو منها ألا يخلو منها اثر ميتاني . وقد يحسن بنا ان نلمح في هذا الصدد الى بعض الآثار الكبرى التي تنسب عادة الى الصنعة الميتانية

﴿ اله الخصب ﴾ نجد اكثر هذه النقوش بروزاً وأوثقها نسبة الى صنع الميتانيين نقشاً بارزاً اكتشف في عشتار ونقل الى متحف برلين يمثل اله الخصب منحوتاً نحتاً خشناً على الطراز القديم

بلحية طويلة وعينين مجوفتين كانت ترصعها بعض الحجارة ، يعلو رأسهُ تاج مزين برسوم حراشف السمك وكذلك القسم الاسفل من ثوبه تشبه رسوم مشابهة وترمز هذه الحراشف في فن ما بين النهرين الى الارض الجبلية فيكون اذاً هذا الاله من آلهة الجبال الاَّ ان بروزجذعي شجرة من جسمه يحملان ثمراً يشبه الصنوبر وانتصاب وعلين عند قدميه يقطان ذلك الثمر يحملنا على الاعتقاد بانهُ اله الخصب الذي جاء في الاساطير القديمة انهُ كان يفدي بنفسه الارمال التي تحرس الشجرة المقدسة كما ان وجود المثين صغيرتين بجانبه حاملتين الى صدريهما وعائين تتدفق منهما المياه مما يزيد الرمز جلاء ويثبت اشتقاقه من الفن السومري القديم

﴿ رأس الجبول ﴾ يأتي بعد ذلك الرأس الحجري المكتشف في ملاحة الجبول الواقعة على مسافة أربعين كيلو متراً شرقي حلب والمنقول الى متحف اللوفر وهو رأس يزيد عن الحجم الطبيعي قليلاً من الحجر البركاني الازرق وقد نحت نحتاً خشناً يماثل نقش آله الخصب الآنف الذكر . بيد ان هذا الرأس تكاد تنبض فيه عروق الحياة اكثر من كل أثر آخر . له جبين ضيق تكللهُ قبعة مخروطية الشكل ذات خطوط طولية متقابلة كانها قرون ترمز الى الالوهة . أما العينان فيلوح ان تجويفي حدقتيهما كانا مرصعين ببعض الحجارة ويعلوهما حاجبان كبيران في وسطهما أنف أفطس يحيط به وجه ضعيف التركيب خدَّتهُ غضون ممتدة من المنخرين الى حد الشفتين كما ان الذقن كثيرة الاخاديد . وخلاصة القول ان هذا الرأس تحفة نادرة المثال بين سائر الآثار الميتانية المعروفة ليومنا هذا (صورتهُ بمقتطف يونيو الماضي صفحة ٤٤)

﴿ تمثال مشرفة البروزي ﴾ ولعني به تمثالاً صغيراً مصنوعاً من البرونز عثر عليه في الحفريات التي أجراها الكونت دي بويسون منذ عشر سنوات في تل المشرفة بالقرب من حمص حيث اكتشف انقاض مدينة قطنة القديمة . وقد صنع هذا التمثال البروزي على نمط رأس الجبول أما سائر أعضاء جسمه فلا تتبين منها غير قبضتين مطبقتين وقدمين حافيتين لانهُ جالس على عرش ومتحقب رداء طويل موشى بالفرو على مثال أصنام سوريا العليا في ذلك العهد وكذلك اكتشف في حفريات مشرفة نفسها رأس حجري ذو لحية قصيرة بعينين مجوفتين تملوهما قبعة منحوتة نحتاً كثير التنوء وعليه مسحة من الصناعة القديمة

﴿ أسد الشيخ سعد ﴾ عثر في قرية الشيخ سعد بالقرب من دمشق على تمثال أسد ضخم الحجم من الحجر البركاني حفظ مؤقتاً في المعهد الفرنسي للفن الاسلامي في دمشق وهو يمت الى الآثار الميتانية بشبه شديد لا سيما في هذه الخاصة القوية التي تكسهُ هيأة تمثال مهما كان الحياة نابضة بين جنبيه

﴿ تمثال السفيرة ﴾ اكتشف في قرية السفيرة التي تقع على مسافة ٢٥ كيلو متراً شرقي حلب تمثال حجري صغير مقطوع الرأس والرجلين يبلغ علوه ٤٥ سنتمتراً يدخل في عداد الآثار

الميتانية يمثل شخصاً لابساً رداء لاصقاً بجسمه يشده الى وسطه نطاق عريض وضع في طياته غمد خنجر مزخرف وقد أمسك بكلتا يديه كأساً مقربة من صدره وتعلمنا الكتابة الاشورية القديمة المنقوشة عليه ان صاحب هذا التمثال يدعى أدوني أبيا بن اميا وقد قدم تمثاله هدية الى معبد الآلهة

تعبّر هذه المجموعة القليلة عن الميزة التي اختصت بها الآثار الميتانية ألا وهي متانة التعبير وروعة الصنع وهي تصلح لان تكون خير مقدمة لكثير من الآثار التي ينتظر ان تسفر عنها الحفريات المقبلة في العاصمة واشوكاني وفي سائر نواحيها كما انها تعد حلقة وثيقة الاتصال بين الآثار السومرية التي استمدت منها أصولها وبين سائر الآثار التي نحتت على مثالها او باتت تحت تأثيرها مثل بعض الآثار الحثية التي يغلب عليها تأثير الفن الميتاني على شاكلة الحجر البارز النقش المكتشف في تلة حلب سنة ١٩٣٠ وعليه معبودان مجنحان يرفعان على قبضتها قرص الشمس داخل هلال وقد نشر رسمه في مقتطف شهر فبراير ١٩٣٧ وبعض الآثار الاشورية الميتانية مثل نقش بيسان الذي صور في القسم الاعلى منه اسد وكلب منتصبان احدهما مقابل الآخر وفي القسم الاسفل كلب يفر اسداً في ردفه مما يجعلنا ان نلمس فيه امتزاج الفنين الاشوري والميتاني خصوصاً في نحت عضلات الاسد وحركة وثوب الكلب . ويجدر بنا قبل اختتام هذا الموضوع ان نأتي ايضاً على ذكر مجموعة الآثار التي اكتشفها البارون اوبنهايم في تل حلف على مقربة من نهر الخابور وبجانب رأس العين تلك الآثار التي حيّرت العلماء في تعيين عهدها ثم كادوا يجمعون على عقيدة الاستاذ جودس الذي يرى انها تمت الى الميتانيين بأوثق الاسباب بالرغم مما يبدو عليها من تأثير الطابع الاشوري وقد حداهم ذلك الى الاعتقاد بأن هذه الآثار صنعت في اواخر عهد الميتانيين عندما بدأ يخبو نفوذهم تحت سطوة الاشوريين وتفوقهم فجاءت تحمل على وجهها صبغة اشورية كادت تخفي وراءها اصلها الميتاني . اما الكتابة الارامية المحفورة على هذه الاصنام والتي اشكل على العلماء في بادىء الامر تفسيرها فقد اتضح انها ترجع الى عهد ملك ارامي يدعى كابارا كان اقام على هذا التل المهجور منذ نحو الف سنة وعثر بين انقاضه القديمة على كمية كبيرة من الآثار المذكورة فأعاد استعمالها واحتفر عليها الكتابات المذكورة باسمه

نقف اليوم عند هذا الحد من دراسة الحضارة الميتانية على أمل ان نعود اليها بعد حين عندما تواصلنا الاكتشافات الجديدة بمعلومات اوفر من شأنها ان تساعدنا على الوقوف على كثير من الامور التي ما برحت متوارية عنا في جوف الثرى . ولسنا لا نكون على ضلال اذا عقدنا كبير الامل على النتائج الخطيرة التي قد يؤدي اليها اجراء حفريات واسعة النطاق في واشوكاني المعروفة اليوم برأس العين تلك العاصمة الميتانية التي لم يفيض لها بعد من يفتش اطلالها الدارسة ويخرج كنوزها المدفونة فعسى ان يوفق في القريب من يكشف لنا القناع عن عظمة تلك الحضارة العريقة في القدم ويشق امامنا طريق الوصول الى كنه الحقائق